١٤٦
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الثالثة ـ العدد السادس (صفر-رجب ١٤٤٤)

كلام في مباني الأخلاق من منطق معارف أهل البيت عليهم السلام

محمَّد إسماعيل مدرِّس الغروي

الخلاصة

نيل الفضائل الأخلاقيَّة أمر ممكن من طريقين؛ طريق إلٰهي و طريق بشري. أمّا الطَّريق الإلٰهي؛ فمفتاح كسب الأخلاق الحسنة؛ فمعرفة الله تعالىٰ ..و طريق الوصول إلىٰ ذلك؛ طلب إعطاء المعرفة من قبل الله عزّ وجلّ، إذ «المعرفة صنعه» و نتيجة و منتهىٰ هذا الطَّريق ـ و خلافاً للطَّريق البشري ـ قطعيٌّ؛ و طيُّه ميسور للجميع. و طبقاً لمعارف أهل البيت عليهم السلام؛ فإنَّ تأثير العوامل الخارجيَّة في الأخلاق، و إن كان حقيقيّاً، إلّا أنَّه لا دور له في إختيار الشَّخص، و ذلك أنَّ الإختيار يلي جميع المؤثِّرات .. و المسألة الأخرىٰ هي أنَّ القدرة الإلٰهيَّة المطلقة ـ فيما سوىٰ أفعال الإنسان الإختياريَّة ـ غالبة و قاهرة علىٰ جميع هذه المؤثِّرات. و عليه؛ فإنَّ الإختيار و كذا القدرة و المالكيَّة الإلٰهيَّة محفوظان في طبيعة و حقيقة أفعال البشر، و هذا هو معنىٰ «الأمر بين الأمرين». و نظراً لما مرَّ.. ستفتح ثلاثة أبواب للمعارف: الرِّياضات و المجاهدات، و التَّوفيق و الخذلان، و الإمتحان و الإختبار ..

المصطلحات: الأخلاق، الغزالي، معرفة الله، عالم الذَّر، أمر بين الأمرين، التَّوفيق، الإمتحان

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

المقدّمة

بدءاً؛ نشير إلىٰ رواية كريمة عن مولانا الإمام الصَّادق عليه السلام، لأجل مزيد الإلتفات إلىٰ المباحث المعرفيَّة و المعارفيَّة .. قال الراوي: سألته عن قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْناهُمْ ماءً غَدَقا﴾ قال: «يعني: لأمددناهم علماً كي يتعلَّمونه من الإئمَّة» و من هنا؛ ينبغي الإلتفات إلىٰ أنَّ جميع الحركات و النَّشاطات العلميَّة و المطالعات المعرفيَّة يجب أن تكون وفقاً للطَّريق و المنهج الَّذي أرشد الله تعالىٰ إليه .. و ليس الطَّريق هذا غير طريق أهل الذِّكر: ﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون) و قد قال أهل البيت عليهم السلام: «نَحْنُ أَهْلُ الذِّكْر» و من جملة المعارف الَّتي أرشد إليها النَّبي الأعظم و الأئمَّة المعصومون عليهم السلام: مسألة المعارف الأخلاقيَّة .. بل إنَّ الرَّسول الأكرم صلى الله عليه وآله حدَّد الهدف و الغاية من بعثته؛ تكميل مكارم الأخلاق، فقال: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»

معرفة الله؛ الأساس الدِّيني للأخلاق

أحد أهمّ نظريّات علم الأخلاق، في مباحث أبي حامد الغزالي، و اللّازم أن تطبَّق علىٰ مباني أهل البيت عليهم السلام .. و الغزالي هو أحد كبار علماء أهل السنّة في السَّير و السُّلوك الأخلاقي هي: التَّربية الأخلاقيَّة عن طريق (معالجة الضِّد) حيث يعتبره هذا الغزالي عاملاً مؤثّراً .. و حسب قوله: كما أنَّ الأمراض البدنيَّة هي عبارة عن خروج البدن عن حدود إعتدال المزاج و ضرورة المعالجة بما هو ضدّه، فإنَّ الأمراض الرّوحيَّة يجب أن تعالج من هذا الطَّريق. فلمعالجة الخوف و الجبن، ينبغي للفرد أن يرمي بنفسه في أنواع المخاوف و المهالك ليزول خوفه .. و قد أورد سعدي الشّاعر حكاية جاء فيها: أنَّ شخصاً من الأشخاص كان مصاباً بالهلع من سفر البحر، فأمسكوا بيده و رموه إلىٰ البحر ليزول خوفه و هلعه. و كذلك هو أسلوب معالجة بقيَّة الرَّذائل الأخلاقيَّة .. و نحن نرىٰ أنَّ الطَّريقة الَّتي اقترحها الغزالي بحاجة إلىٰ فترة زمنيَّة مديدة و إلىٰ عمر طويل .. و من جهة أخرىٰ؛ فإنَّ المسار المقترح من قبل الغزالي بحاجة إلىٰ معرفة نظريَّة، و هي ما ليست

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

متوفِّرة للجميع .. وكذا؛ فإنَّ قياس الأمراض الرُّوحيَّة؛ فهي ليست كذلك، أي أنَّ الإنسان يغفل عنها في الغالب ..

والمؤسف في الأمر؛ أنَّ الَّذين يتعمَّقون في المباحث الأخلاقيَّة؛ يأخذون عن الغزالي .. حتّىٰ أنَّكم إذا طالعتم كتب المتأخِّرين، رأيتم مسارها ذات مساره .. والغزالي لدىٰ بيان مباني الأخلاق لم يرجع إلىٰ القرآن الكريم وأهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم الصَّلاة والسَّلام، وإنَّما إعتمد علمه وتحقيقاته وحسب .. وكما مرَّ؛ وجدنا الإمام الصَّادق عليه السلام قال في تفسير الآية القرآنيَّة القائلة: «لأمددناهم علماً كي يتعلَّمونه من الإئمَّة».

والموضوع المهمّ الآخر؛ هو أنَّ الدِّين متَّسق مع الفطرة الإنسانيَّة وقائم علىٰ أساسها، ولذا؛ أكَّد النَّبي الأكرم صلى الله عليه وآله علىٰ أنَّ الدِّين الَّذي جاء به هو دين العموم، والقرآن الكريم قال أيضاً: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاس﴾.

ومن جهة أخرىٰ؛ فإنَّ الطَّريق الَّذي أشار إليه الغزالي وأتباعه لتحصيل الأخلاق الكريمة ليس طريقاً عامّاً .. إذ هو يستغرق عمراً مديداً ويستنقذ إمكانات كثيرة، لا تكفيه أعمار أكثريَّة النّاس، كما أنَّ تلكم الإمكانات والطّاقات غير متوفِّرة ..

أمّا الطَّريق الَّتي دلَّ عليها صاحب الشَّريعة؛ فهو معتدلة متساوية بالنِّسبة لجميع النّاس، وللعالم والجاهل، وللعربيّ والعجميّ، والعامّي والفيلسوف، والأميّ والمحقِّق .. وهو طريق عملي للجميع؛ لأنَّه مطابق للفطرة، ولا يتطلَّب علماً ولا مالاً ولا رياضة ولا إبتعاداً عن مواهب الحياة ...

وقد ورد التَّأكيد في الآيات والرِّوايات علىٰ أنَّ النَّبي الأعظم صلى الله عليه وآله قد بعث ليتمِّم مكارم الأخلاق .. وهو بنفسه الشَّريفة المقدَّسة كان يحظىٰ بـ(الخُلُق العظيم) إذ قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيم﴾ فمن بعث ليتمَّم مكارم الأخلاق ومن كان علىٰ خُلُقٍ عظيم قد إختط للنّاس طريقاً ومنهجاً .. ولابدَّ من الرُّجوع إليه بحكم العقل .. وللإطِّلاع علىٰ المنهج النَّبوي وطريق الأئمَّة في مسألة الأخلاق؛ لابدَّ من الرُّجوع إلىٰ الكتب والمصادر الحديثيَّة والرِّوائيَّة.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

أمّا طريق و أسلوب الغزالي و أتباعه، فيمكن أن يؤدّي إلىٰ نتيجة مرجوَّة، و لكن حتّىٰ بالنِّسبة إلىٰ من يوفّق إلىٰ النَّتيجة المرجوَّة عبر هذا الطَّريق، فإنَّه لا ضمانة مؤكَّدة له للبقاء علىٰ الكمالات الأخلاقيَّة، اللّٰهم إلّا أن يصمد علىٰ المعالجة بالضِّد أبداً ... و هذا لعمري طريق عسير..

و عليه؛ فإنَّ هذا الطَّريق غير ممكن للجميع بنسبة مطلقة، كما أنَّ البقاء عليه غير يسير.. أمَا إذا إتَّخذ الطَّريق الَّذي اختطه الأئمَّة عليهم السلام منهاجاً و مساراً؛ فإنَّ فيه الضمان عن عدم الغفلة عن الله تعالىٰ .. و مرادنا ممّا تقدَّم هو أنَّ الله سبحانه يريد من البشر أن يتوجَّهوا و يلتفتوا إليه ـ فرُّوا إلىٰ الله ـ إذ الحركة الإنسانيَّة ينبغي أن تكون في الله تعالىٰ و بالله سبحانه .. و النَّظرة يجب أن تكون بالله و في الله .. فإن أردت تلمُّس الأخلاق الحميدة، فليس لك إلّا الذِّكر الدّائم .. و الإنسان تارة و في بعض حالاته و مراحل حياته يجد نفسه في اللّا شيء .. و لكِّنه كلَّما إزداد معرفة؛ كلَّما إزداد رفعةً .. و هو حين يتوفَّر علىٰ الغنىٰ بالله و يقول: يا الله .. سيسمع الله يقول له مجيباً: لبَّيك عبدي ...

إنَّ الطَّريق الَّذي وصفه الآخرون، و إن كان يحمل معنىٰ الرِّياضة النَّفسيَّة، و لكن لكونه إختيار شخصي بشري، لا بأمر من الله تعالىٰ، و إنَّما هو لإرضاء النَّفس، فإنَّه لا يؤدّي إلىٰ النَّتيجة المطلوبة .. و حسب التَّعبير العلمي: «دفع الأفسد بالفاسد» و لكن ثمَّ نبيّاً قد بعث و جاء لينقذكم من حفرة النَّفس و هلاكها، و لإعادتكم إلىٰ الأصل و الفطرة؛ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّه»

اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ [نَبِيَّكَ]؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ اللَّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي

و إن قيل: إنَّ من الممكن أن يغفل في هذا الطَّريق .. فهو طريق غير مضمون ..

فجوابه: إنَّ عدم الغفلة ميسَّر للجميع، أي أنَّه طريق يمكن للجميع أن يطووه، بخلاف الطَّريق الَّذي اقترحه الغزالي في نفسه .. فالله تعالىٰ يقول في القرآن: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

فما لم يغفل ابن آدم، فإنَّ التَّوفيق هذا يكون من نصيبه .. و الله قد خلقنا لأجل ذلك فنلتفت و نصمد إليه فينعم علينا بنعمه.

إنَّ ما يقال في باب الأخلاق الإنسانيَّة خلاصة ما أدلىٰ به العلماء من معلمي الأخلاق البشريَّة .. و إذا ماطالعتم مادوّن مؤخَّراً من قبل العلماء، سترون أنَّه جميعاً قائم مستقىً من أقوال الغزالي، كما في كتاب (المحجَّة البيضاء) الَّذي اقترح المعالجة بالضِّد، و لكن طريق أهل البيت عليهم السلام هو ذكر الله و معرفته سبحانه الَّذي يجسد أساس الأخلاق الفاضلة في المعارف الإسلاميَّة.

و ما ترونه في بعض الرِّوايات الشَّريفة من أنَّ: «أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُه» لأنَّ جميع الفضائل و الكرامات و الصِّفات الحسنة تقع في ذيل «معرفة الله» و إنَّما تحرَّز من هذا الطَّريق .. و طبعاً لابدَّ من ملاحظة أنَّ «معرفة الله» و في أيِّ باب تلاحظ كونها متناسبة و موضوع ذلك الباب. فمعرفة الله في باب التَّوحيد أو باب المعاد تتناسب معها .. و معرفة الله في باب الأخلاق تتناسب و المسائل الأخلاقيَّة .. و أسلوبنا في البحث هو أنَّنا نبيِّن المعارف القرآنيَّة و الرِّوائيَّة.

إنَّ الولوج في دائرة الأخلاق يتسنّىٰ من طريقين؛ طريق الأنبياء و طريق البشر.. و نحن نعطف المطالب ضمن آفاق نور العقل و الوجدان علىٰ القرآن و الرِّوايات .. و نبحث المسائل وفق قوله تعالىٰ: (فَبَشِّرْ عِبادِ * الَّذينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه) ثمَّ نختار الأفضل .. أمّا (القول) هنا؛ فمطابق للمعيار، و المعيار هنا هو الكتاب و سنة الرَّسول و آل بيته الطّاهرين .. فنقيس الكلمات وفقاً للآيات القرآنيَّة الشَّريفة الرِّوايات الكريمة، فإن كان الإختيار هو هذا المسار؛ فبها، و إلّا فإنَّه المسار الَّذي قدَّمه الشَّيطان لنا ..

فإذا أنفق الإنسان الموحِّد و المسلم، و كان إنفاقه بدافع شخصي، فإنَّه و إن كان قد خالف نفسه الحريصة علىٰ المال في ذلك، إلّا أنَّه قد إختار طريق الإنفاق من أجل نفسه و إرضائها، و أضحىٰ طريقه طريقاً شيطانيّاً .. إلّا أن تكون مخالفته نفسه إنطلاقاً من أقوال أهل البيت عليهم السلام ..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

و قد نُقل أنَّ مرتاضاً التقىٰ الإمام الصَّادق عليه السلام و كان يخبر عن أشياء، فسأله الإمام بالقول: ماذا تعلم عمّا في يدي؟ فقال المرتاض: هو بيضة طائر أتيتَ بها من غابة كذا. فقال الإمام: ماذا فعلت حتّى نلتَ هذه القابليَّة و القدرة؟ فقال الرَّجل: هي مخالفة النَّفس! فقال الإمام: حيث خالفت نفسك في كلِّ شيء؛ فلمَ لا تُسلم؟ فإن أردتَ؛ فخالف نفسك في ذلك و أسلمْ! فلم يقبل الرَّجل .. و لكنَّه حين أسلم في نهاية المطاف فقد قدرته علىٰ الإخبار ... فقال الإمام: خالف نفسَك و لكن من طريق الله! ..

إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد جاء لينقذنا من بئر ويل النَّفس، و ينجينا من مهلكة النَّفس الأمّارة بالسُوء، و يلفت أنظارنا و عقولنا إلىٰ فطرتنا و الغاية من خلقنا فيجعل كل واحد منا «عبداً» مسلّماً لمولاه، بمعنىٰ أن يكون فقيراً بالذّات .. ينظر إلىٰ سيّده بحيث إذا أعطىٰ عبده الدُّنيا برمَّتها؛ فإنَّه يبقىٰ غنيّاً لا ينقص من خزائنه شيء .. و بحقيقة هذا المطلب لايبقىٰ لبخل العبد معنىً .. فتراه ينفق ما عنده في سبيل الله، لأنَّه يرىٰ أنَّ الله يعطيه ما يريد .. كذلك الأمر في الإنفاق من العلم و الشَّجاعة و ... و في جميع هذه الصِّفات؛ إذا انطلق المرء من وجدانه؛ يكون قد تخلَّق بالأخلاق الحميدة لأنَّه يراها جميعاً صادرة عن مصدر واحد؛ و هو يعتمده و يتكيء عليه .. و هو كلَّما تقرَّب منه؛ إغتنى أكثر و أكثر .. و هنا يجد قوله المجيد: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾ مصداقاً رائعاً، و ذلك أنَّ معرفة الله الطَّريق الأوحد لتزكية النَّفس الإنسانيَّة، فإن يتقنَّت بالله تعالىٰ و عرفته و شاهدت و لمست غنىٰ الرَّب المتعال .. هنالك ستقول: «يَا ذُخْرَمَنْ لَا ذُخْرَلَهُ، يَا حِرْزَمَنْ لَا حِرْزَلَهُ، يَا كَهْفَ مَنْ لَا كَهْفَ لَهُ، يَا كَنْزَمَنْ لَا كَنْزَلَه» و هنالك لن يتسلل إليك القلق إزاء افتقارك لبيت أو مال .. لأنَّك أيقنت بالرَّب الَّذي لا تنفذ خزائنه .. و ليس هو بالبخيل علىٰ عبده ..

و هكذا كانت حياة و سيرة الأنبياء و الأولياء في مواجهة الطَّواغيت و الجبابرة، فقد كان الأنبياء يقولون: لنا ربٌّ، و إنَّما ندعوه بما أمرنا و أراد منّا .. ياترىٰ ماذا كانت أسلحة الأنبياء؟ فإذا كانوا يريدون مواجهة الطَّواغيت بالشَّجاعة، ما كانوا ليلقوا بأنفسهم في المهالك .. و إنَّما كان يقينهم بربّهم و إلٰههم الواحد الأحد يدفعهم إلىٰ أن لا يهابوا شيئاً باطلاً .. و هكذا وجدنا إبراهيم الخليل عليه السلام حين رمىٰ عدوّه به إلىٰ النّار؛ لم يخشه و لم

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

يخشىٰ النّار .. و لمّا قيل له: أُدخل النّار؛ دخلها بلا خوف و هلع .. و لم يسمع لفكرة و شعور الجوع و المرض؛ لأنَّه إعتمد ربّاً و إلٰهاً بيده دواء كل الأمراض ..

و حين تقول: «يَا مسبِّب الأسباب» فله ـ الله ربّ العالمين ـ أن يحدِّد السَّبب، و لعلَّه لا يرسل وسيلة ذلك من السَّماء، و لكنَّه سبحانه يُدِلُّ و يرشد، و يهيِّيء الأسباب .. و عليه؛ لك و عليك أن تقول: «يَا مسبِّب الأسباب! سبِّب لنا سبباً» فإن كان لك هذا المستوىٰ من اليقين ستتحلّىٰ بالأخلاق الواعية الصّادرة عن وعي و معرفة .. فهذه الأخلاق ليست تعليميَّة و لا تحرز بالقراءة .. و إنَّما هي بحاجة إلىٰ تمرين و تذكُّر .. و لإبن آدم أن يكون معلِّماً للأخلاق حين تتوفَّر فيه الأخلاق الإلٰهيَّة .. و كيف يمنع تناول الرّطب من يأكله ؟!

و قيل أنَّ أحدهم جاء المرحوم الميرزا الإصفهاني و مدح شخصاً في محضره علىٰ أنَّه من أهل التَّزكية و أنَّ عنده قابلية إنخلاع الرّوح. فقال الإصفهاني: إن أخبرك أحدهم بأن كان اليوم في سوق العطور .. فاقترب منه، فإن كانت فيه رائحة عطر؛ فصدَّقه .. و كذا من كان متخلِّقاً بالأخلاق الكريمة، يلزمه أن يفوح من أقواله و أفعاله عطر الأخلاق الفاضلة .. و كذا تجارته و درسه و سلوكه مع أسرته و جميع حركاته و سكناته يجب أن تدلّ علىٰ عالم المعنىٰ .. و أمّا إن كان غافلاً عن كل ذلك؛ فيعلم أنَّ ما يقول مجرَّد لقلقة لسان و لا يؤمن بما يقول: [و إذا كان مؤمناً؛ فهو مؤمن مستخفّ ..] إذ لو كان مؤمناً بما يقول حقّاً .. لاتَّصف به .. و عليه؛ إذا كانت معرفتي بربّي بحدود اليقين و الإيمان الرَّصين بأنَّه سبحانه «لَا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُوداً وَ كَرَما ..» فإنَّني لن أبخل بعد ذلك و لن اضطرب .. فيما إذا ضعفت معرفتي؛ ضعفت أخلاقي.

و يقول أتباع الغزالي: ينبغي للإنسان أن يعمل بخلاف نفسه، فإذا أعطىٰ مالاً؛ فليعطِ بهدف محاربة بخله.

أمّا أهل البيت عليهم السلام فيقولون: ليكن العطاء و الإنفاق بإعتبار أنَّ الله تعالىٰ غنيٌّ بالذّات؛ و نحن لسنا غير وسيلة .. فالله هو الَّذي يعطي؛ و غناه لا أوّل و لا آخر له .. و حركة الفرد

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

المؤمن و العارف ينبغي أن تكون بجهة ربٍّ إذا أعطىٰ؛ يتَّصل به العطاء و الكرم الَّذي لا أوَّل و لا آخر له.

و إذا ما سأل أحدهم عمّا إذا رحل بمقترحهم و منهجهم ـ أتباع الغزالي و شفي من مرضه مثلاً .. أفلا يدلّ هذا علىٰ صواب منهجهم؟

فنقول في معرض الإجابة: ترىٰ هل أنَّ هذا الطَّريق هو ما أرشد إليه نبيّكم صلوات الله عليه و آله؟ لاريب أنَّ الإجابة سلبيّة، إذ هو طريق شيطاني .. و إن كان شأنه كشأن المرتاضين الَّذين يبدو أنَّهم بلغوا كمالاً في الظّاهر...

إذن فمفتاح إكتساب الأخلاق الحسنة و الفضائل و الكرامات الإنسانيّة: (معرفة الله) و طبعاً إنَّ (معرفة الله) تهيمن علىٰ كلِّ باب بالنِّسبة لموضوعها .. و قد ذكرنا آنفاً أنَّك ـ أيُّها الإنسان متىٰ ما أيقنت بربِّك الذي هو «الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ الْمُقْتَدِرُ الْقَادِرِ» فإنَّك لن تهاب أحداً أو شيئاً .. و إنَّما الخوف سيلمَّ بك حين تتحرَّك في طريق مجرَّد عن رضا الله تعالىٰ و خلافاً لإرادته فترىٰ إذ ذاك قد هويتَ في المهالك .. إمّا إذا كنت متكئاً علىٰ الله و أيقنت بأنَّ ربَّك غنيٌّ بالذات، و علمت إنَّك إن ملكت شيئاً فإنَّما ملكته ملكاً غير دائم أو من عند نفسك .. و الله قادر علىٰ أن يعطيك و يسلبك إياه، و إن أعطاك فمن فضله، و إن منعك فبحكمه ... إن تحصَّلت لديك هذه الشَّاكلة من المعرفة لن تعود مهتمّاً باليد الَّتي تمتدَّ إليك و تسألك .. و إنَّما العطاء في سبيل الله هو ما سيكون معيارك و غايتك.

و إن سألت عن كيفيَّة إكتساب المعرفة؛ وجدت أهل البيت عليهم السلام يقولون: «المعرفة صنعُ الله». فإن أردت المعرفة؛ عليك أن تطلبها منه سبحانه .. إذ أنَّك ـ أيُّها الإنسان ـ محاطٌ؛ فكيف لك أن تحيطَ بذلك المحيط؟ إنَّما عليك أن تطلب المعرفة به ليعرِّفك سبحانه نفسه، و عليك أن تستقيم و تديم القول: «اللّٰهمَّ عرِّفني نفسَك» و هكذا يكون مفتاح الوصول إلىٰ جميع الأخلاق الحميدة و الفضائل؛ المعرفة بالله تعالىٰ .. و واضح أنَّ هذا المطلب من أيسر الأمور و أسهل الأشياء .. لماذا؟ لأنَّ «المعرفة صنعُ الله» و عليك

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

أن تتعلَّق بأذيال كرمه، فتطلب منه المعونة و اليقين .. و هذا هو أوّل المطلب و وسطه و منتهاه .. هذا إن سمحت لك النَّفس الطّامحة.

و حين تدخل الأخلاق الحميدة؛ تخرج و تغادر الأخلاق الرَّذيلة .. و حين يدخل الخير؛ يخرج الشَّر.. و لكنَّك حين لا تأتي بخير؛ يبقىٰ الشَّر في موضعه .. و كلَّما زادت المعرفة و اليقين؛ تناقصت الرَّذائل .. و ذهب البخل و الحسد و التَّكبُّر.. و لكن! لماذا التَّكبُّر؟ فحينما تعرف ربَّك؛ ستعرف نفسك .. و مهما عرفت من غنىٰ الله؛ وجدت الفقر في نفسك .. و كلَّما عرفت علمه سبحانه علىٰ أنَّه لا أوّل و لا آخر له و تأكَّد لك بأنَّ تعالىٰ عالم بالذّات، عرفت جهلك الذّاتي .. و هكذا هو المطلب اللّازم لكل طالب للأخلاق الحسنة .. و عليه؛ فإنَّ الطَّريق الَّذي رسمه النَّبي الأكرم ﷺ و آله و أرشد النّاس إليه .. هو طريق ميسور للجميع، و لا مانع و لا رادع دونه إلّا غفلة إبن آدم و إنعدام الإرادة فيه ..

دور العوامل الخارجيَّة في الأخلاق

البحث في هذا الشَّطر من المقال: تأثير و دور المقتضيات في أعمال الإنسان .. فهل أنَّ المقتضيات الطَّيِّبة تستدعي الطّاعات علىٰ سبيل الحتم و اللُّزوم؟ فإذا ما ولد شخص من نطفة طاهرة طيِّبة، و كان أبواه صالحين و قد راعيا فيه الأصول الصَّحيحة في التَّربية .. فهل أنَّه ستصدر عنه أعمال صالحة علىٰ سبيل الإلزام؟ و عكس ذلك؛ ما إذا وُلد من نطفة زنا ـ مثلاً، و لم تتوفَّر في بيئته التَّربويَّة ـ أسرة و مجتمع ـ الشُّروط المطلوبة، فهل ستصدر عنه الأعمال السَّيِّئة علىٰ سبيل الحتم و الإلزام؟

ما هو مسلَّم أنَّ مقتضيات الأعمال الصّالحة و السَّيِّئة بمثابة الأرضيَّة في ميْل و رغبة الفرد إلىٰ الصَّلاح أو السُوء .. فمن كانت نطفته و طعامه طاهرين، فلا ريب أنّه ستتكرَّس فيه الرَّغبة و الميل إلىٰ الصَّلاح بمعدَّلات كبيرة، و أكثر ممَّن كانت نطفته و طعامه غير طاهرين .. و علىٰ هذا؛ فإنَّ العوامل المذكورة و مثيلاتها ستؤثِّر ـ إلىٰ حدٍّ بعيد ـ في أخلاقه و أعماله. و بعبارة أخرىٰ؛ إنَّ كل أثر موافق لطبيعة مؤثِّرة .. و هنا ثمَّ سؤال يطرح نفسه؛ و هو: إذا كان الأمر كذلك؛ فلماذا يستحِقّ العاصي العقاب؛ و المطيع الثَّواب؟ و هذان في

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

عملهما تعلّقا بعوامل جبريّة مختلفة؛ و لم تكن لهم الخيرة فيما صدر عنهما ..!

و لدىٰ الإجابة علىٰ هذا السُّؤال ثمَّ سبيلان:

١- أن نقبل بتأثير (العوامل و المؤثِّرات) علىٰ سبيل الإلزام، و بالنَّتيجة سنؤمن بالجبر في نهاية المطاف.

٢- أن ننفي تأثير (العوامل و المؤثِّرات) عموماً، و بالنَّتيجة سنؤمن بعدم وجود دور لها في أفعال الإنسان.

و لكنَّنا نذهب إلىٰ أنَّ السَّبيلين هٰذين موضع خطأ فادح، فإذا ما نفينا دور المؤثِّرات و المقتضيات؛ سقطنا في أفدح الأخطاء .. و لقد حلَّت معارف أهل البيت عليهم السلام ـ و منها المعارف و العلوم الخفيَّة لهم، و هي الَّتي أوردها المرحوم الآقا ميرزا مهدي الإصفهاني ـ هذا الإشكال؛ إشكال الجبر و التَّفويض المطلقين بمفهوم و قاعدة «الأمر بين الأمرين».

و الفلاسفة يعتقدون بأنَّ «الذّاتي لا يعلّل» أي أنَّ ما هو ذاتي في غنىً عن التَّعليل. فالماء منشأ للبرودة، كما أنَّ النّار منشأ للإحراق، فالبرودة و الإحراق ذاتيان في الماء و النّار .. و هذا الإعتقاد و المذهب و القول وارد في آخر بحوث الفلاسفة في باب تتبُّع علل الحوادث و الأعمال .. أمّا أهل بيت العصمة و الطَّهارة عليهم السلام فيرجعون هذا الإختلاف الذّاتي إلىٰ «عوالم الذَّر» و يقولون بأنَّ من بادر و أسرع في تلك العوالم إلىٰ التَّصريح بكلمة (بَلى) فإنَّه في هذه الدُّنيا ستكون له ما يتناسب و تلك الطّاعة من الآثار الوجوديَّة .. و الواقع هو أنَّه في هذا البحث نجد معارف أهل البيت عليهم السلام لدىٰ البحث عن العلل و تتبُّعها قد سبقوا الفلاسفة و تقدَّموا عليهم ..

فمعارف أهل البيت عليهم السلام تكشف عن أنَّه بعد أن تحدَّد و تميَّز المطيع من العاصي في عالم الأظلَّة و الأشباح؛ عمد الله تعالىٰ إلىٰ خلق الخلائق و خلطهم بالطّينات .. و خلط طين الأظلَّة الشَّريفة بطين الإظلَّة الخبيثة و كذا العكس .. لماذا؟! إتماماً للحجَّة و إظهاراً للعدل؛ حيث مزج سبحانه مادَّة أرواح السُّعداء و أبدان السُّعداء بمادَّة أرواح الأشقياء و أبدان الأشقياء .. ثمَّ منحهما القدرة و الإختيار؛ «جبراً للكسر» فتجبر القدرة و الإختيار

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

الكسر الوارد .. و لولا وجود إعطاء القدرة و الإختيار؛ لاضطرَّ الإنسان إلىٰ الكسر دوماً، و ذلك بحسب العلاقة بين الطِّينات و آثارها؛ نظراً إلىٰ أنَّ التَّأثيرات تصدر عن المؤثِّرات بشكل طبيعي .. و لكنَّ الله تعالىٰ ـ جبراً للكسر ـ خلط هاتين الطِّينتين و أعطاها القدرة و الإختيار، لئلّا تستند إطاعة المطيع علىٰ شيء غير القدرة و الإختيار.

إنَّ الإقتضاءات المتوفِّرة في الطِّينة الخبيثة تسوق الإنسان إلىٰ العصيان و تلزمه، فلماذا يعرِّضه الله ﷻ للعذاب إذن؟ لأنَّه في النِّهاية يكون المناط في كل تأثير عائداً إلىٰ القدرة و الإختيار، ذلك ضمن سلسلة مراتب الآثار و المؤثرات ..

لقد خلط الله سبحانه بين الطّينتين، و مزج بين النّور و النّار، و عجن موادَّ الأرواح و الأبدان مع بعضها .. إلّا طينة محمَّد ﷺ و أهل بيت العصمة عليهم السلام .. حيث أسكنهم تحت العرش ـ أو موضع قدسي آخر ـ حفظاً لهم .. أمّا غير طينة هؤلاء الأقرب إلىٰ الرَّب المتعال، فطينات مخلوطة ممزوجة معجونة .. و لولم تكن كذلك؛ ما عصىٰ شيعي ربَّه و ما أطاع عدوَّهم .. و لكن حيث أعطوا ـ الشّيعة ـ القدرة و الحرّيَّة، و كان لقدرتهم و حريَّتهم هذه أن تمنعهم من المعصية؛ و لم تمنعهم؛ فقد استحقّوا العقاب؛ و بالعكس ..

أمّا أعداء أهل البيت عليهم السلام؛ و هم من لا يستحقّ الثَّواب الأخروي، فإنَّهم إذا ما مارسوا طاعة ما ـ و ذلك بمقتضىٰ مزج الطّينة الطَّيّبة ـ فإنَّ الله تعالىٰ يثيبهم في الدُّنيا و سيحرمهم في الآخرة .. لأنَّ آثار كل شيءٍ كما شعاع الشَّمس الَّذي يعود إلىٰ ذات الشَّمس .. و هكذا هي الآثار الطَّيّبة و الأعمال الصّالحة الَّتي تصدر عن الطّينة الخبيثة؛ ستعود في القيامة إلىٰ الطينة الطَّيّبة؛ لأنَّها مرتبطة بها و عائدة إليها أساساً .. فلا تعود إلىٰ الطِّينة الخبيثة .. و إنَّ تحديد من هو صاحب الطِّينة الخبيثة الغالبة؛ و تحديد من هو صاحب الطّينة الطَّيّبة الغالبة أمر في غاية العسر .. إذ قد تكون المادة الأصليَّة لطينة شخص طيّبة، و لكنَّها لدىٰ الإختلاط المستحدث؛ غلبت عليها طينة خبيثة، أو بالعكس .. و عليه؛ فإنَّ مجرَّد صدور أعمال صالحة كثيرة؛ أو مجرَّد تشيُّع ظاهري لا يجسِّد دليلاً علىٰ السَّعادة الحقيقيَّة .. فـ«لايُغرّنَّ أحدٌ بأعماله» يعني خطل الإغترار بالأعمال الصّالحة ـ الظّاهريَّة ـ و إنَّما «لاتُغرّنَّ بإيمانه» مثل ايمان ابن ملجم الَّذي لم يَدُم.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

فلا ينبغي أن تغرَّنا الأعمال و الإيمان، «فإنَّ منه مستقرٌّ و منه مستودع»، فلا ينبغي لأحد أن يطمئنَّ لنفسه حتّىٰ يلقىٰ لحظة موته .. و عليه؛ فلا الغرور و لا اليأس أمران مطلوبان .. و إنَّما علىٰ المؤمن أن (يؤرجح) نفسه بحبلي الرَّجاء و الخوف، لأنَّ عاقبة الأمر غير معلومة .. و ليس لعابد زاهد أن يطمئنّ، كما ليس لكافر فاسق أن ييأس .. و علىٰ ما تقدَّم، فإنَّ المؤثِّرات و المقتضيات في السَّعادة و الشَّقاوة، و شرف الظلّ و سعادته أو دناءة الظِّل و شقاوته غير منوطين بكثرة الطّاعات أو المعاصي .. إذ أنَّ أعمال الجوارح ليست دليلاً ـ لوحدها ـ علىٰ السَّعادة أو الشَّقاء ..

و حين هجوم الإبتلاءات؛ من فقر و ذلّ و نقص بالأموال و الأولاد و غير ذلك، يعرف المرء علىٰ حقيقة كنهه؛ من حيث حبّ الله و رسوله و أوليائه، كما هو الحال لدىٰ الرَّخاء و الرِّفاه .. فإن أشكل مستشكل و قال بأنَّ الرِّوايات الواردة كثيرة في أنَّ صدور الطّاعات و المعاصي منوط بمقتضىٰ الطّينة .. فجوابه: أنَّ هذا خلف و تناقض .. لأنَّ إعطاء القدرة و الإختيار متأخِّر عن جميع الإقتضاءات، و الفعل منوط بما هو متأخِّر؛ دون المقتضيات و المؤثِّرات المتقدِّمة في الرُّتبة .. فما كان متقدِّماً في الرُّتبة؛ لا يكون الحكم حكمه و لا القول قوله ...

و بعبارة أخرىٰ؛ إنَّ إنكار تأثير المؤثِّرات و الإقتضاءات من أفحش الأخطاء، إذ بين الآثار و المؤثِّرات نسبة طبيعيَّة، و لكنَّ إختلاف المؤثِّرات مستند إلىٰ عامل آخر، و ذلك ما هو ما بالذّات لكلِّ إختلاف، ثمَّ إنَّ ما بالذّات لا يتَّبع شيئاً آخر .. و هو القوة الغالبة القاهرة، و هي الَّتي تحدِّد خاصيَّة الشَّيء و ليس غيرها .. ففي عالم الأظلَّة و الأشباح كان الإختلاف؛ إختلاف الطّاعة و العصيان؛ و في مواد البدن و الرُّوح اختلافٌ عائد إلىٰ الأجزاء و قطعات الماء البسيط .. و يعود الإختلاف في الأشياء و يؤدّي إلىٰ أن يكون شيءٌ بارداً و آخر حارّاً إلىٰ الإختلاف في الطّاعة و العصيان، حيث كان في عالم الأظلَّة و الأشباح .. كما أنَّ الأرواح و الأبدان كان لهما الطّاعة و العصيان في عالمهما .. و إنَّما كان الإختلاف في الأجزاء و قطعات الماء البسيط حين عرضت عليها الولاية .. و عليه؛ فهذه الإختلافات في الطّاعة و العصيان عائدة إلىٰ أنَّ كلّاً منهم كان لهم الإختيار في

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

نشأتهم، و لم يكن هذا الإختلاف بإقتضاء مقتضىٰ و تأثير مؤثِّر، و إنَّما كان مستنداً إلىٰ محض القدرة و الإختيار ..

لقد خلق الله تعالىٰ الأظلَّة بلا مادَّة، ثمَّ أعطاها نور الولاية مع القدرة و الإختيار و الشُّعور، ثمَّ «أطاع المطيع و عصىٰ العاصي عن علم و قدرة؛ عمداً و إختياراً» و قد خلق سبحانه الماء البسيط و ملَّكه نور الولاية و جعله مختاراً قادراً .. فقبل بعض أجزاء الماء البسيط الولايةَ إختياراً .. و إلىٰ هنا؛ لا علاقة لذلك بتأثير المؤثِّرات؛ حيث لم يكن ثمَّ ذكر لتأثير المؤثِّرات الخارجيَّة و الماديَّة .. و لا ريب في أنَّ سنَّة العدل و الحكمة الإلٰهيَّة أدَّت إلىٰ أن تُجعل الأظلَّة المطيعيَّة في المادَّة المطيعيَّة الشَّريفة، و كذا أن تجعل الأشباح العاصية في المواد الخسيسة الطّاغية؛ عدلاً و عقوبة ... و بعد هذه المرحلة حصل إختلاف المؤثِّرات و المقتضيات. فصارت الطّينة الخبيثة تنتج آثاراً خبيثة و تتطلَّب ما يناسبها .. فيما الطّينة الطَّيِّبة تنتج آثاراً طيِّبة و تتَّبع ما يناسبها .. و هذه الطّينات و المواد المالكة لنور الولاية صارت مؤثِّرةً و موجدة للآثار المشابهة لها؛ و مفنية للآثار المضادَّة لها .. و هكذا يتبيَّن أنَّ التَّأثيرات المادّية من الأمور الحتميَّة، لأنَّ من لوازم مالكيَّة الموادّ ظهور هذه الآثار المرتبطة بها .. فالنّار حتمٌ عليها الإحراق .. و كلّ شيء يمسّ الماء محكوم بالبرودة...

إذن؛ فصدور الآثار عن المؤثِّرات حتميٌّ و لازم، لأنَّ الله تعالىٰ جعل هذه المؤثِّرات و حكم أن يكون لكلّ مؤثِّر أثره الخاص، و ملَّكه نور الولاية، و جعل المؤثِّرات مستندة إلىٰ الآثار.. و بإيضاح هذا المطلب؛ يلزم بنا الإذعان بأنَّ الأفعال الصّادرة عن المختارين مستندة إلىٰ القدرة و الإختيار في عين و خضم إستنادها إلىٰ المؤثِّرات..

و يزداد وضوح هذا المطلب بعد ثلاثة تنبيهات:

١- صدور الفعل عن قدرة و إختيار

إنَّ صدور الفعل عن قدرة و إختيار يعني أنَّ الفعل غير خارج عن قدرة و إختيار الشَّخص .. فأنت بقدرتك توجد ماهيَّة الفعل .. فهنا؛ توليد و توالد جديد، و هو طبعاً

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

ليس حسّياً و لا عقليّاً .. إنّما أنت توجد ماهيَّة الفعل و تملِّكه نور الولاية .. و هذا التمليك يتمّ برضاك و حرّيَّتك دونما إحداث تغيير فيك ... فحينما يوجد المرء فعلاً، يجد أنَّ فاعل هذا الفعل و مالكه هو نفسه، و أنَّ هذا الفعل قد حصل و صدر بإذنه و رضاه .. فأنا مالك فعلي، و قد ملَّكته من النور الَّذي في داخلي؛ أنا الفاعل .. و المراد من نور الفاعل الشّيء الَّذي أعطاه إيّاه حين الخلقة، ليقوم بالفعل برضاه و حرّيَّته و إرادته .. و هذا الموضوع صادق في الله تعالىٰ بالنَّحو الأكمل و الأتمّ (اللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِساب) فهو مختار بتمام المعنىٰ، و لا أحد له القدرة علىٰ أن يسلبه حرّيَّته .. و قد أعطىٰ سبحانه الإنسانَ الحرّيَّة و الإختيار لدىٰ خلقته.

٢- غلبة قدرة الخالق

جعل الله تعالىٰ الإحراق في النّار، و لكنَّه سبحانه أقدر و أملك من قدرة النّار علىٰ الإحراق، و هو متىٰ أراد سلبها هذه القدرة .. و لذا؛ حين ألقي النَّبي إبراهيم عليه السلام في النّار؛ أمر سبحانه النّار أن تكون برداً و سلاماً و سلبها قدرتها علىٰ الإحراق: ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاما﴾ و بهذا يُعلم أنَّ تأثير الإحراق من قِبل النّار ليس مطلقاً، و إنَّما هو مشروط بإرادة الله و إذنه. و عليه؛ فإنَّ تأثير المؤثِّرات مشروط بعدم غلبة قدرة القادر عليها .. و بخصوص الإنسان الَّذي هو من إبداع الخالق البارئ المصوِّر، و ملَّكه فضائل من قبيل العلم و القدرة و الحرّيَّة .. فالمطلب هو المطلب، إذ في الإنسان مؤثِّرات يمكن أن تُغلب بقدرته ..

و المرحوم الآخوند الخراساني في كتاب (الكفاية) و حين يناقش في بحث الطَّلب و الإرادة، و بعد استعراضه جملة الآراء المختلفة في هذا الباب، و بعد تناول الإنتقادات و الرُّدود؛ يصرّح بعجزه في مبحث (الجبر و الإختيار) بقوله: «يكسر رأس القلم حين بلغ هذا الحدّ»... ذكرت ذلك ليعلم المدىٰ الَّذي واجه فيه العلماء الأمر المشكل في هذا البحث، و في الأغلب عجزوا عن أداء المطلب حقَّه، بل إنَّ كثير منهم مالوا إلىٰ القول بالجبر ـ نصّاً أو مضموناً ـ رغم أنَّهم أثبتوا الإختيار ـ الإختيار الَّذي هو متفاوت مع كنه الإختيار في مبحث المعارف ـ إذ أنَّهم أوردوا مفردة الإختيار، و باطنهم رأيهم ملاث بالجبر.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

فطبقاً لمعارف أهل البيت عليهم السلام، و إن كان تأثير المؤثِّرات أمراً حقيقيّاً واقعياً، إلّا أنَّ قدرة القادر غالبة علىٰ جميع المقتضيات و المؤثِّرات و فاعلة بتمام المعنىٰ .. فإذا رأيت قدرة الله القاهرة غالبة علىٰ جميع الكائنات و جميع المؤثِّرات .. ستدرك ـ نوعاً ما ـ العظمة الإلٰهيَّة و خوفه و خشيته سبحانه وتعالى. فإذا كان أهل البيت عليهم السلام ـ مع ما لهم من العصمة الكبرىٰ و المعرفة الَّتي لاتضاهىٰ ـ يرتجفون خوفاً و خشية من الله جل وجلاله .. و إذا كان أميرالمؤمنين علي عليه السلام يسأل ربَّه الأمان من عذابه و قبول اللُّجوء إليه و هو عليه السلام يربّي شيعته علىٰ هذه المفاهيم المعرفية ... المترجم] فإنَّما ذلك ليقينه بمالكيَّة الله المطلقة .. إذ كانت لحظات خوف المعصوم لحظات دائمة متَّصلة لا إنقطاع لها ..

٣- وعاء وجود القدرة

وعاء وجود القدرة بعد جميع المؤثِّرات، أي أنَّ جميع المؤثِّرات كانت قبل القدرة و الإختيار و مقدَّمة عليها .. و عليه؛ بعد جميع الإقتضاءات و التَّأثيرات و التأثُّرات و جذب الإنجذابات المادّية الَّتي تمنعها قدرة القادر .. و من هنا يتَّضح أنَّ غلبة المؤثِّرات علىٰ قدرة القادر موضوع لا أساس له .. فإذا توفَّرت جميع عوامل المعصية و مع وجود حصول جميع هذه المقتضيات و المؤثِّرات تكون القدرة علىٰ القيام بفعل بعد جميع هذه العوامل .. أمّا الفلاسفة؛ فيؤمنون بعكس هذا المعتقد و يعدّون القدرة قبل هذه العوامل .. و نتعلَّم ضمن معارف أهل البيت عليهم السلام أنَّ «القدرة علىٰ الفعل» في طول هذه العوامل و تتجلّىٰ في آخر مرحلة .. و هكذا يكتشف خطأ مدخليَّة المقتضيات في القدرة و إختيار القادر، و يتَّضح أنَّ المقتضيات و المؤثِّرات ليس لها مقدار ذرَّة في قدرة و إختيار الشَّخص، و لذا؛ فإذا كانت ثمَّ مدخليَّة للإقتضاء و المقتضيات و التَّأثير و المؤثِّرات، فهي منوطة بعدم منع القادر ... و بإتِّضاح الأركان الثَّلاثة المذكورة، ترون أنَّه لا جبر في البين و لا تفويض.

فلا جبر؛ لأنَّ القدرة و اختيار الإنسان تأتي بعد جميع المقتضيات و المؤثِّرات و العوامل. و لا تفويض؛ لأنَّ قدرة الخالق غالبة علىٰ جميع ما سوىٰ الله تعالىٰ، و هو سبحانه أملك علىٰ ما يملّك؛ و إن توفَّرت للشَّخص جميع عوامل المعصية، و كان مائلاً بقدرته

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

واختياره المعصية .. فما لم يأذن الله تعالىٰ؛ لا تتحقَّق المعصية، لأنَّ قدرة الخالق أقدر علىٰ قدرة الإنسان، وهذا هو معنىٰ «لا جبر ولا تفويض؛ ولكن أمرٌ بين الأمرين»

أفعال الله التَّكوينيَّة

إنَّ لقدرة الحق المتعال الغلبة علىٰ كلِّ شيء، وهي قاهرة في كلِّ تأثير وإقتضاء طبيعي مادّيّ .. إذن؛ بحفظ وجود تأثيرات المادَّة الطَّبيعيَّة، يكون تحقُّق الآثار مشروطاً بعدم المنع الإلٰهي .. مثال ذلك: إنَّ النّار تحرق إذا أذِن الله لها ولم يمنعها ولم يسلب قابليَّتها علىٰ الإحراق .. أمّا إن لم يأذن لها؛ فلن تفعل فعلها .. وقد ورد في الرِّواية: «لَا يَكُونُ شَيْءٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا بِسَبْعٍ: بِقَضَاءٍ وَ قَدَرٍ وَإِرَادَةٍ وَ مَشِيئَةٍ وَ كِتَابٍ وَ أَجَلٍ وَ إِذْنٍ. فَمَنْ زَعَمَ غَيْرَ هَذَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللهِ أَوْ رَدَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ.»

فهو جلّ وجلاله المالك المطلق في كلِّ حال .. والمالك له حق التَّدخُّل والتَّصرُّف في ملكه .. ولذا فإنَّ أملكية الله محفوظة دوماً وفي كلِّ حال له سبحانه .. وعليه؛ إذا كان للنّار أن تحرق؛ فإحراقها إنَّما يكون بالإرادة والإذن اللَّذين توجَّها ويتوجَّهان إليها من جهة الله المالك المطلق .. نعم؛ إنَّ نسبة الإحراق إلىٰ النّار أمرٌ صحيح، ولكن لا ينبغي نسيان أنَّ ذلك مشروط بإذن الله. وبعبارة أخرىٰ؛ إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل للنّار قابليَّة الإحراق بصورة مطلقة؛ ولم يفوِّضها في ذلك، وإنَّما هو سبحانه قد حفظ حق الأملكيَّة والمالكيَّة المطلقة لنفسه في مسألة قابليَّة النّار في وعلىٰ الإحراق .. وليلاحَظ أنَّه لا حاجة بأن يكرِّر الأمرَ للنّار بالإحراق مراراً وتكراراً، فيقول لها في كلِّ حالة ماديَّة طبيعيَّة: إحرقي، إحرقي .. لأنَّ أمر الإحراق كان قد صدر لها وجعل فيها منذ البداية .. وإنَّما عدم صدور الأمر ـ الإستثنائي ـ لها بعدم الإحراق هو أمر لها بالإحراق، وأنَّه تعالىٰ راضٍ لها بالإحراق، فيتحقَّق الإحراق .. بل خلقة النّار كانت علىٰ أساس أن تكون مخلوقاً حارقاً .. وإنَّما تكون وتتحقَّق طاعتها لربِّها بإمتثال أمره وجعله، وهو: الإحراق. أمّا إذا أصدر خالقها الأمر بعدم الإحراق (كما في قصَّة النَّبي إبراهيم عليه السلام) فإنَّ النّار ستمتثل أمر ربَّها فلا تحرق .. وذلك أنَّ النّار ـ في الأصل ـ مغلوبة ومقهورة بقدرة الله الَّتي لا مردَّ لها ...

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

و يقول البعض: لا يمكن أن تكون النّار غير حارقة، فإذا كانت العلّة موجودة فلابدَّ من وجود المعلول ..

و لكن هذا القول في أصله التِلقائي مؤيّد للقول: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فالله العاجز عن ضبط النّار و السَيطرة عليها و التَّحكُّم بها، هو إله مقيَّد مغلول و معدم الإرادة .. أمّا إذا كان ـ سبحانه ـ خالقاً مالكاً، فلابدَّ من كونه متسلِّطاً قاهراً غالباً على سبيل الإطلاق و الإستقلال .. و ما يستفاد من الآيات و الرِّوايات: له أن يمنع و له أن يأذن .. و التَّوسُّل إلى الله صادر من هذا المعنى .. و النَّبي الأكرم صلوات الله عليه و آله يقول: ينزل البلاء كالمطر، فتصدَّقوا .. و كأنَّكم بالصَّدقة تطلبون من الله أن لا تصيبكم آفة فيكون الله تعالى مانعاً دون ذلك .. و لهذا ذكَّرنا الله بالقول في كتابه المجيد: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ليتَّصل الإنسان بربِّه على الدَّوام و يلجأ إليه و يستغيث به، و لهذا؛ كان باب الدُّعاء مفتوحاً، لأنَّ وعاء قدرة الله متأخِّر عن المقتضيات و المؤثِّرات، و وعاء القدرة هذا قاهر و غالب على كلِّ شيء.

إذن؛ فالإقتضاءات الطَّبيعيَّة غير دخيلة في قدرة الله تعالى، لأنَّها محيطة و وعاؤها متأخِّر عن تحقُّق جميع الإقتضاءات. فإذا ما توفّر اليقين في مسألة الأفعال التَّكوينيَّة الصّادرة عن الحق تعالى بأنَّ وعاء الوجودي لقدرة الحق القادرة بعد جميع الإقتضاءات و المؤثِّرات يتيسَّر فهم المطلب الثَّاني بخصوص أفعال الإنسان الإختياريَّة أيضاً.

و صحيح أنَّ الطّينة الخبيثة تستدعي الميل إلى الأعمال الخبيثة، و أنَّ الطّينة الطَّيِّبة تستدعي الميل إلى الإعمال الطيِّبة الصّالحة، و لكن القدرة الغالبة و القاهرة من جهة الفاعل في منع الإقتضاءات و التَّأثيرات هي المسيطرة من جهة القدرة الَّتي وهبها الله تعالى .. لأنَّ هذه القدرة تأتي بالتَّرتيب بعد تحقُّق جميع الإقتضاءات و التّأثيرات المادّيَّة و انجذابات الطِّينة ..

و كثيرة هي الأخبار الواردة و القائلة بأنَّ تحقُّق القدرة و الإستطاعة قبل و بعد الفعل و حين الفعل.. فالقدرة على القيام بالفعل في طول جميع المقتضيات و بعدها أيضاً ..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

فيكون تجلّي القدرة بعد جميع المؤثّرات.

بلىٰ؛ إنّنا لا نردّ أثر المؤثّرات؛ مثل الطِّينة و طهارة المولد .. فالعلماء الرَّبّانيُّون الَّذين بلغوا المقامات السّامخة لا ريب في أنَّ طينتهم الطَّيّبة كانت مؤثّرة في المقامات السّامية الَّتي حظوا بها .. أو ذلك الشِّمر الدنيء؛ لا ريب أنَّ نطفته و رحم أمّه و طينته الخبيثة كانت مؤثّرة للغاية في سوْقه عن الخبائث .. و لكن المسألة المهمَّة .. أنَّ اولئك العلماء الرَّبّانيّين المرضيّين عند أهل البيت عليهم السلام كانوا لدىٰ أعمالهم قائمين بقدرتهم و إختيارهم و رضاهم و إذنهم و حرّيّتهم .. و كانوا قادرين أيضاً علىٰ منع المؤثّرات الطَّبيعيَّة .. و من هنا تفتح أبواب التَّوفيق و أبواب الخذلان، بمعنىٰ أنَّه بأملكيَّة الله المتعال تُفتح .. حيث أنَّ التَّوفيق إلىٰ إنجاز العمل الصّالح هو من جهة الله تبارك وتعالى .. فالله مؤثّر هنا؛ و هو الحاضر .. و لطالما نبَّهتنا الرِّوايات الكثيرة إلىٰ التَّركيز و عدم الغفلة عن ذكر الله و الإيمان بأنَّه حاضر ناظر دوماً و في كلِّ الأحوال، لأنَّه سبحانه حافظ و مسيطر في مالكيَّته في جميع اللَّحظات .. و هذا هو ما يجدر بربِّ الأرباب؛ الله مالك الملوك .. و هذا هو معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ و المخلوق عاجز مطلق العجز عن سلب ربّه مالكيَّته، هذا هو معنىٰ: «لا تفويض، و لكنَّ البعض يعدّون الله جل‌وجلاله مقيَّداً و يده مغلولة لقولهم بأنَّ الخالق قد خلق الخلائق ثمَّ هيَّأ الأسباب و نصب العلل ثمَّ تنحّى جانباً .. و هؤلاء يقولون بأنَّه إذا توفَّرت العلَّة و المعلول صار الفعل دون الحاجة إلىٰ حضور الله و تفعيله مالكيَّته .. فمتىٰ ما كان الماء؛ كانت الرُّطوبة، و متىٰ كانت النّار؛ كان الإحراق؛ و لا حاجة إلىٰ ربِّ الماء و النّار و جميع العلل .. »

و بين هذا و ذاك لا نجد أحداً يتساءل عن طبيعة هذا الرَّب المتنحّي عمّا خلق من العلل، و من و ما هذا الَّذي يسمّي نفسه ربّ الأرباب؟ فإن كان الله كذلك، فلا معنىٰ لقوله سبحانه: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ و لقوله في قرآنه المجيد: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ﴾

إنه تعالىٰ في منظار أهل البيت عليهم السلام «هو الغالب و هو المالك، و هو الحيُّ الَّذي لايموت، و هو الَّذي كلَّ يومٍ هو في شأن؛ و لا يشغله شأن عن شأن» ...

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

إذن؛ لاجبر و لاتفويض، أي أنَّ للإنسان دوراً كما لله دور .. فإختيار ابن آدم محفوظ، و كذا الغلبة و القدرة و الأملكيَّة لله ربِّ العالمين، و هذا هو معنىٰ: «أمرٌ بين أمرين» و في باب الأفعال الصّادرة عن الموجودات المختارة قلنا: بأنَّ التَّأثير الحقيقي و المقتضي و المسبّب مشروطة بإذن و رضا و عدم منع القادر، فإذا ما أسندنا الفعل إلىٰ شخص، فإنَّ هذا الإسناد حقيقي، و كذا يمكن الإسناد إلىٰ المؤثِّرات باستناد حقيقي .. فيكون كلا الإسنادين صحيحين بالتَّوضيح المتقدِّم .. و لذا نجد باب استحقاق العقوبة و الثَّواب يفتح علىٰ مصراعيه .. و هكذا يعاقب الله جمعاً و يثيب جمعاً ...

و الَّذي يلقي شبهة التَّوفيق و الخذلان، إنَّما يريد نفي القدرة و اختيار الإنسان. و ردّ هذه الشُّبهة في أنَّ ما هو موجود في وجوده من مقتضي الطّاعة هو توفيق الله .. و الَّذي يقتضي المعصية متوفِّر لديه أيضاً؛ فيكون موضع خذلان الله تعالىٰ .. و لكن مع كلِّ ذلك، و مع أنَّنا نؤمن بأنَّ التَّوفيق و الخذلان صادران من الله، فإنَّ صدور الطّاعة و المعصية هو من الإنسان مع القدرة و الإختيار .. و هذا يعني أنَّه إذا كان مقتضىٰ التَّوفيق متوفِّراً في شخص، فإنَّه لدىٰ العمل العبادي و الإطاعة الصّادر منه فهو ضمن وعاء قدرته و اختياره، إلّا أنَّ ثمَّ ميزةً تميزه، و هي لأنَّ مقتضىٰ الطّاعة ـ التَّوفيق ـ متوفِّر فيه و يرغب بالأمور الشَّبيهة، فهو يسوق نفسه إلىٰ إنجاز الأفعال الصّالحة، فيؤدّيها بأريحيَّة أتمّ و أكمل .. و يقصد بمقتضىٰ الطّاعة المتوفّر؛ كأرض طيِّبة متوفِّر فيها مقتضىٰ قبول العمل بالمسحاة .. فيدفع إليها الماء .. هذا الماء الملائم لطبيعة الأرض .. و جميع ذلك منوط بإرادة الفلّاح ـ مثلاً ـ الَّذي يعمل بالمسحاة أو لايعمل ..

و كذلك الحال بالنِّسبة إلىٰ موضوع الخذلان .. فوجود مقتضيات المعاصي يكون من جهة الله تعالىٰ، فإذا كان إقتضاء المعصية موجوداً، وجدناه بصورة طبيعيَّة و غريزيَّة ينجذب إلىٰ ما يشبهه، أي: المعصية .. و لكن يبقىٰ أنَّ صدور المعصية يتحقَّق بقدرة و إختيار الإنسان، لأنَّ صدور المعصية متوفِّر في وعاء قدرته و إختياره، و لذا؛ يكون مستحقّاً للعقاب مستوجباً للعذاب ..

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

إنَّ تأثير المؤثِّرات غير قابل للإنكار أساساً .. و قد ورد في روايات جمَّة إسناد الآثار إلىٰ المؤثِّرات و العلل و الأسباب و المقتضيات؛ التَّشريعيَّة منها و التَّكوينيَّة، و لكن المسألة الجديرة بالدِّقة هي أنَّ الأفعال الصّادرة عن البشر لا تستند إلىٰ شيء سوىٰ قدرة و إختيار الإنسان .. و هو لا يرىٰ علاقة و تأثيراً لتلك المقتضيات المادّيَّة الَّتي تغلب قدرته و إختياره .. و هذا الموضوع صادق في الطّاعة و المعصية معاً؛ و لا فرق بينهما .. و هكذا يتبيَّن إستحقاق العقوبات و صحَّة إعطاء المثوبات، لأنَّ للقادر مدخليَّة تامَّة في تأثير هذه المؤثِّرات، و لهذا يعاقب و يثاب .. و من هنا يفتح باب آخر؛ و هو حقيقة التَّوفيق و الخذلان ..

و هنا نتقدَّم بمسألة هامَّة دقيقة؛ و هي أنَّ الإنسان في عالم الأظلَّة لم يعص و لم يطع تبعاً للمقتضيات و المؤثِّرات، و إنَّما أطاع لمجرَّد الطّاعة، و عصىٰ لمجرَّد المعصية و بمحض قدرته و إختياره .. أمّا الطّاعة و المعصية في عالم النَّشأة المادّيَّة.

آثار و نتائج النَّظريَّة

نظراً لما تقدَّم من بحوث، فإنَّه يفتح ثلاثة أبواب من أبواب المعارف هنا؛ الرّياضات و المجاهدات، التَّوفيق و الخذلان، الإمتحان و الإختبار.

١- باب الرّياضات و المجاهدات

الإنسان و بالرَّغم من توفُّر جميع المؤثِّرات؛ له أن لا يعصي .. فهو قادر علىٰ مقاومة المؤثِّرات و مواجهتها، فيعتصر نفسه فلا يعصي .. و لهذا؛ كان للرّياضات و المجاهدات أجر و ثواب، و لو تكن هذا المؤثِّرات المادّيّة و المقتضيات الطَّبيعيَّة لم تكن ثمَّ مجاهدة و رياضة في البين؛ كما هي غير مطلوبة من الملائكة، إذ لا وجود في حياتهم ممّا يقتضي المعصية أو ما يقعدهم عن الصَّلاة ـ مثلاً ـ و يدفعهم إلىٰ المعصية.

٢- باب التَّوفيق و الخذلان

نفس إيجاد المقتضي و الدّافع إلىٰ أداء صلاة اللَّيل ـ مثلاً ـ مثل مزج الطّينة الخبيثة بالعلّيين، أو مثل الرَّغبة النَّفسيَّة بالحور و القصور و الغلمان الَّتي تسبب يقظة الإنسان

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

لأداء صلاة اللَّيل .. هو عموماً توفيق تكويني من جانب الله تعالىٰ .. لأنَّ هذا الميل ليس في يد الإنسان .. و إن كان الشَّوق إلىٰ صلاة اللَّيل و إلىٰ حمل القرآن و تلاوته آناء اللَّيل بأيدينا لحرصنا علىٰ أن يكون هذا الشَّوق و الرَّغبة متوفِّراً فينا دائماً .. ممّا يشير إلىٰ أنَّ هذا الشَّوق و هذه الرَّغبة عبارة عن «توفيق من الله» توفيق لم يمنحه الله تعالىٰ لكثير من الأفراد .. و الحال أنَّه سبحانه قد أعطىٰ توفيقاً تكوينيّاً و كذا توفيقاً تشريعيّاً .. فنزول البلايا بمثابة توفيق تكويني؛ لأنَّها سبب في الإلتجاء إلىٰ ربِّ العالمين، و هو نعمة عظيمة .. أمّا التَّوفيق التَّشريعي؛ فمثل إنذار الرُّسل و تبشيرهم، حيث يؤدّيان إلىٰ إيجاد و تعاظم الرَّغبة في الطّاعات و النأي عن المعاصي .. و معلوم أنَّ في إزاء هذا الإلقاء الإلهي و الرَّحماني، ثمَّ إلقاء شيطانيَّة؛ من الجنّ و الإنس تستهدف الإنسان المؤمن ..

و في أنماط الخذلان ثَمَّ ما هو تكويني و ما هو تشريعي .. فالخذلان التَّكويني مثل الغنى و الثَّروة و النِّعمة و العيشة المرفَّهة .. فإن تسبَّب ذلك بغفلة و نسيان؛ كان «الخذلان من الله». ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ و ثَمَّ خذلان تشريعي، مثل عدم الإستماع لبشارات الأنبياء.

٣- باب الإمتحان و الإختيار

لو لم تكن المؤثِّرات و المقتضيات، ما مال قلب إلىٰ حيث المعاصي .. فالإنسان يمتحن ترك المعاصي و فعل الطّاعات، لأنَّ قلبه مائل إلىٰ المعصية و قرب الطّاعة، فكان ينبغي أن يكون الإمتحان بهما، فلا يعصي المرء بقدرته و إختياره؛ أو يميل بهما نحو الطّاعة .. و هكذا يتجلّىٰ لزوم وجود المؤثِّرات و التّأثيرات، و هذا ما يدعىٰ: «لطف من الله».

إنَّ الطَّريق الَّذي اختطّه أهل البيت ﴿عليهم السلام﴾ لتهذيب النَّفس و إكتساب الأخلاق الكريمة و أرشدوا إليه؛ طريق قائم علىٰ أساس (معرفة الله) زال الخوف و البخل و الشَّهوة الباطلة، لأنَّ الإنسان سيعي أنَّ الغنيّ بالذّات هو ربُّ العالمين، فيما الباقون متَّكئون عليه .. و إن أكرمك الله بمعرفته؛ وجدت كلّ الكمال و تحصَّلت عليه .. و عليه؛ يلزمنا أن نطلب منه

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]

و ندعوه دوماً بهذا الدُّعاء:

«اللّهُمَّ عَرِّفْنِي نَفْسَكَ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللّهُمَّ عَرِّفْنِي رَسُولَكَ [نَبِيَّكَ] فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللّهُمَّ عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي»

و لإكتساب هذه المعرفة الإلهيّة، علىٰ الإنسان أن لا يوسوس لنفسه، بل عليه أن يجعلها في مسار الحق، و أن يتعبّد و يطيع، و أن يهذِّب و يزكّي نفسه و يقاومها، و أن يطلب المدد من ربّه المتعال.

... فكيف الطَّريق إلىٰ ذلك؟

قال عليه‌السلام: «الِاسْتِعَانَةُ بِالْحَقِ عَلَى النَّفْس».

المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

١- الآخوند الخراساني، محمَّد كاظم بن حسين، كفاية الأصول، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام ١٤٠٩ ق.

٢- ابن بابويه، محمَّد بن علي، التَّوحيد، قم، جامعة المدرِّسين، ١٣٩٨ ق.

٣- ابن طاووس، علي بن موسىٰ، مهجُ الدَّعوات، قم، دار الذَّخائر، ١٤١١ ق.

٤- الأسترآبادي، علي، تأويل الآيات الظّاهرة في فضائل العترة الطّاهرة، قم، النَّشر الإسلامي، ١٤٠٩ ق.

٥- السَّبزواري، هادي بن مهدي، شرح المنظومة، طهران، نشر ناب.

٦- سعدي، مصلح بن عبدالله، كلّيّات سعدي (فارسي).

٧- الغزالي، محمَّد بن محمَّد، إحياء علوم الدِّين، ط. دمشق.

٨- الفيض الكاشاني، محمَّد بن شاه مرتضىٰ، المحجَّة البيضاء في تهذيب الإحياء

٩- الكفعمي، إبراهيم العاملي، المصباح، قم، دار الرضي ط. ثانية، ١٤٠٥.

١٠- الكليني، محمَّد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، ط. ٤، ١٤٠٧ ق.

١١- المجلسي، محمَّد باقر، مرآة العقول، طهران، دار الكتب الإسلاميَّة، ط. ٢، ١٤٠٤ ق.

١٢- النّوري، حسين بن محمَّد تقي، مستدرك الوسائل، قم، مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام ط. ١، ١٤٠٨ ق.

[Downloaded from lava-al-hamd.ir on 2025-08-02]